السيد محمد توفيق البكرى

كأديب وشاعر

منذ عدة سنوات تجول بخاطرى رغبة شديدة فى الكتابة عن السيد محمد توفيق البكرى ، غير أن شواغل الصحافة وطريقتها الكتابية فى انتهاز المناسبات ، ومسايرتها لحوادث الأيام ، وتناولها كل ما يعلق باذهان الجمهور ، وما يدور فى خلده سواء أكان جداً أم هزلا ، مهماً أم تافهاً — كل ذلك شغلنى كثيراً عن كتابة شىء عن هذا الأديب الكبير الذى ابتسم له الدهر حيناً ثم قلب له ظهر المجنّ ، وأزجى اليه من اوهام النفس ، واضطراب الحسّ ما شقى به عهداً طويلاً ، وحرم دولة الأدب العربى خدماته ، ومحا اسمه من سجل الأدباء الأحياء قبل وفاته بعشرين عاماً .

وقد كنت راغباً شديد الرغبة فى الكتابة عن هذا الأديب ، لأن كثيرين يجهلونه ، ولان بعضهم ما يمسك بكتابه « صهاريج اللؤلؤ » ويتصفح فيه سطراً أو سطرين حتى يدعه جانباً ، ويتمثله كالحريرى فى اسلوبه وإغرابه . وللحريرى فى مقاماته شهرة بهذا الاغراب ، جعلت هذه المقامات — وا أسفاه — كتّاً مهملاً ، وأثراً مطموساً لا تستبينه العيون ، وليس لها فى النظر اليه نصيب .

وإنى لأذكر ان استاذاً لى كنت أتلقى عليه فن الانشاء ، رأى معى يوماً هذه المقامات ، فاختطفها من يدى وكاد يقذفنى بها انتقاماً منى لقراءة هذه المقامات ، وجعل يوبخنى وينهانى عن تصفح مثل هذه الاسجاع الغريبة والالفاظ الضخمة ، كأنه خشى أن انسج على هذا المنوال ، وانهج هذا النهج فى زمن يرتاح الى السهولة وينفر من الصعوبة ، ويطمئن الى رفاهية العيش ، ويفرّ من خشونته .

وما كان هذا الاستاذ ليصرفنى عن اسلوب الحريرى وامثاله لولا أننا فى زمن غير زمانهم ، وفى بيئة غير بيئاتهم ، ولكل زمان اسلوبه ، ولكل بيئة ذوق تستسيغ النسج على مثاله .

وما كان الحريرى وامثاله كالهمذانى الا فى زمن استساغ هذا الاسلوب ، أو قبله على الاقل ، ولم يرفيه مايراه أهل العصر الحاضر من الركاكة والتنافر والتنكب عن الذوق السليم .

وكذلك كان السيد محمد توفيق البكرى فى كتاباته النثرية وفى مؤلفه « صهاريج اللؤلؤ » على الاخص . فقد كان فى زمن يقبل هذا الاسلوب المسجّع وكان قرناؤه ينهجون هذا المنهج حتى الذين اشتهروا منهم بالزعامة الأدبية والعلمية والخطابية كمحمود سامى باشا البارودى الشاعر الفحل ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والزعيم الأكبر سعد زغلول باشا . واليك بعضاً من كتاباتهم فى هذا العهد الذى كان يجمعهم جميعاً ، والذى بدأوا فيه النهضة الادبية التى نجنى ثمارها فى هذه الايام .

قال المرحوم محمود سامى باشا البارودى فى مقدمة ديوانه : « اللهم انى احمدك على ماهديت ، واشكرك على جزيل ما أسديتَ ، واستعينك على رعاية ما اسبغتَ من النعم ، واستهديك لشكر ما اثبت من الدّعم ، واعوذ بك من عثرات اللسان ، وغفلات الجنان ، كما اعوذ بك من غدرات الزمان ، وبغتات الحدثان ... » الخ .

وكتب الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيما كتب وهو مجاور بالازهر تحت عنوان « الكتابة والقلم » :

« ان مما انبسطت به ايدى الضرورات ، وانتجته مقدمات الحاجات ، انشاء لسان القلم ، نائباً عن المتكلم فيما يتكلم » ...

وقال المرحوم سعد باشا زغلول فى كتاب ارسله الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

« تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، الناشىء فى نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالاته ، الشافى لما فى الصدور ، الكاشف لحقائق الأمور ، الهادى الى سبيل الرشد والى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، سرور المريض بالشفاء وافاه ،

وتلاه متدبراً دقيقَ معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد ايماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بحكمة من أوحاه ، وشكراً لله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال » . . .

وبديهي أن المغفور له سعد باشا زغلول لو كان قد استمر على هذا الاسلوب الى وقتنا هذا لما لقى من يعجب ببيانه ، ولما جذب اليه المثقفين وعامة الجمهور .

على أن السيد محمد توفيق البكرى أوغل فى هذا الاسلوب ، وتعمق فيه كثيراً وساعده فى ذلك ثروته اللغوية ، وحفزه اليه فى كتاب « صهاريج اللؤلؤ » حبُّه ان يضمن سطورَه نُخباً من الحكم ، وأقاويل من جوامع الكلم ، وأمثولات فى المواعظ والاعتبار ، وألفاظاً مهجورة فى هذا الاوان . قال فى مقدمته :

« .. وقد التزمتُ فى اكثر عبارتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وأنا اعلم ان من الادباء من ينفر من الغريب ، ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل ، فلم يثننى ذلك عن ان اودع كلام الاعراب بهذا الكتاب ، واحذو فيه فى اثر تلك الرفاق ، بما فى هذه الاوراق :

اين امرؤ القيس والعذارى إذْ مال من تحته الغبيطُ
استنبط العرب فى الموامى بعدك واستعرب النبيط »

إذن لم يكن ليكتب السيد البكرى هذه الصهاريج بهذا الاسلوب الا لتلك الغاية التى رمى اليها من أن يحيي اسلوب فصحاء العرب ، ويعيد ما درس استعماله من الفاظهم العربية المهجورة . وهذه غاية شريفة ، ولا شك ، ولكن هل أحسن السيد فى ما ذهب اليه ؟

ان من يطلع على هذه الصهاريج يشهد بان مؤلفها غنى المادة ، قوى الحافظة تؤاتيه الالفاظ الغريبة كما تطاوعه الالفاظ السهلة ، ولكن سجعاتها تختلف بين القوة والضعف ، فهو يجيد حيناً ، ويتكلف حيناً آخر ، وهو يسمو الى المعانى البليغة ، وينزل منها الى التافهة . وربما ضاعت المعانى البليغة فى السجعات الركيكة أو الالفاظ الحوشيّة . ولكن يمكننا أن نقول إنه سجّاعٌ من الدرجة الاولى وكاتب من الدرجة الثانية .

وقد تخلل هذه الصهاريج شعر هو فصل الخطاب فى قيمة هذا الرجل من الادب العربى . فكل من يقرأ هذا الشعر تأخذه تلك الفصاحة وهذه السلاسة

اللتان امتاز بهما السيد فى شعره عنه فى نثره ، وكان جديراً بان يكون فى الطليعة من شعراء العصر الحاضر .

ويمكنك أن تفهم الفارق بين شعره ونثره فيما كتبه وفيما نظمه فى وصف سفينة تشق عباب البحر . فقد قال فى كلمة نثرية :

« . . واخذت السفينة تشق اليمّ شق الجلم ، فى ريح رخاء ، وزعزع ونكباء . فهى تارة فى طريق معبد ، وميث مطرد ، وطوراً فوق حزن وقردد ، وصرح ممرد ، فبينما هى تنساب كالحباب اذا هى تلحق بالرباب ، وتحلق كالعقاب ، فتحسبها تارة تحت القتام جبلاً تقشع عنه الغمام ، وتخالها مرة عائماً على شفا ، قد غاب الا هامة أو كتفا ، والبحر آونة كالزجاج الندى أو السيف الصدى ، يلوح كالصفيحة المدحوّة ، أو المرآة المجلوّة ، وحيناً يغرب زخاره ، ويموج مواره ، فكأنما سيرت الجبال ، وكأنما ترى قباباً فوق افيال ، وكأنما قبوراً فى اليم تحفر ، وألوية عليه تنشر ، وكأن العِدّ (البحر) يمخض عن زبد ، وكأن الدوىّ من جرجرة الآذى زئير الأسد ، وهزيم الرعد » .

هذا ما كتبه نثراً فى وصف السفينة والبحر ، واقرأه بعد ذلك شعراً فلا شك انك واجد بينهما فارقاً عظيماً ، قال :

أجدّك هل تدرى وقد سرتُ والدجى
يخال على الآفاق درعاً ممرّدا

أخوض عباباً فوق فلكٍ تظنها
على سروات اليمّ قصراً مشيّدا

تهادى به مثل العقاب وتارة
ترقى من الامواج صرحاً ممرّدا

وتزدم حيناً فيه حتى كأنها
تجوز على العلات حزناً وقرددا

خضارة مرآة السماء فلم تزل
ترى وجهها فيه وإنْ بعد المدى

فان أشرقتْ فيه الغزالةُ خلتها
كعين بجوف البحر تقذف عسجدا

وان لاح تحت الماء بدر رأيته
كماويّة يعلو على متنها صدى

وربّما خلت النجوم عشية
لآلىء فى قاعيه مثنى وموحدا

هنا فارق عظيم حقاً بين شعره ونثره كما فى غير هذا الموضوع مما نظمه ونثره ،

حتى اننا نستطيع أن نقول إن السيد توفيق البكرى شاعر من شعراء الطبقة الاولى على قلة ما نظمه ، ولو كان الزمان قد ابتسم له كما ابتسم لغيره أو لو أنه امهله حتى يتم خدماته للأدب لاخرج ثروة شعرية يقدرها كل لديب ويعجب بها كل قارىء . واننا لنتمثل فى هذا الصدد بتلك الابيات التى قالها :

وفى وسعةِ المرء نيلُ العلا وقد يمنع المرءَ ما يمنعُ
صغيرٌ من الامر يلهيه عن بلوغ العظائم أو يقطعُ
كعين تحيط بهذا الوجو د جميعاً ويحجبها اصبعُ !

وللسيد توفيق شذرات شعرية تحوى حكماً بالغة ، منها :

الناس يخشون من جاه المليك وما لديه لولاهم فى ملكهِ جاهُ
كصانع صنماً يوماً على يده وبعد ذلك يرجوه ويخشاهُ !

ومنها :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمةً فتنوء منه بفادح الاثقالِ
ظُلمُ الرعيةِ كالعقابِ لجهلها ألمُ المريض عقوبةُ الاهمالِ

طاهر الطناحى